ANCORA IMPARO

العصور

السنة الثالثة

سبتمبر ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك: فيثاغورس مجلد ٥ العدد ٢٥

الثقافة اليونانية

وعلاقتها بحضارات الشرق القديمة

— ١ —

١ — مفترق الطرق

قبل أن نمضى فى هذا البحث نرى واجباً علينا أن نتناول بالكلام فكرة صدرت عن فئة من مفكرى المصريين الذين أجلهم كأصدقاء واحترمهم كرصفاء فى مهنة الصحافة . فقد اتفقت فكرة فئة غير قليلة من نابهى الباحثين الذين يجب أن نقيم لآرائهم الاجتماعية والسياسية وزناً كبيراً ، أن مصر يجب أن تصدف بمصريتها عن شرقيتها وأن تقيم أرض الفراعنة من فوق ثراها المقدس المحبوب ، حضارة مصرية لحماً وعظماً ودماً كما يقولون . وانى لأومن بنبل هذه الفكرة بل وأذهب إلى أكثر مما يذهبون اليه مغالاة فى تقدير الفكرة من حيث أثرها السياسى والاجتماعى فى نفسية أمة تريد

أن تكون اليوم لاشرقية ولا غربية ، بل مصرية بكل ما تتسع له معانى المصرية من الصور والظواهر الثقافية . غير أنى على الرغم من هذا قليل الايمان مزعزع العقيدة فى الأثر العملى الذى يمكن أن يجنى من وراء فكرة كهذه هى بمثابة البلقع الخراب فى واد مخضوضر خصيب

ليس من ينكر أننا قطعنا بالحكم الرومانى والحكم الاسلامى كل علاقة لنا بمصر القديمة . لا من حيث الأصل والنشأة والسلالة ، على الرغم من أن هنالك شكا كبيراً فى هذا أيضاً ، بل من حيث الصور الثقافية ومظاهر الحضارة . فان مختلف الحضارات التى توالت على مصر صورها ، قد ركزت فى نفسية الشعب المصرى صورة خاصة من التناوب وعدم الاستقرار وقلة الايمان بما للصور الثقافية من قوة الاستمرار . فان شعباً تتوالى عليه خلال العصور لا أقل من عشر حضارات متوالية تمحو كل تالية منها آثار سابقتها أو تندمج فيها أو تنتحلها باللقاح ، لا يمكن أن يكون ثابت العقيدة فى حقيقة الصور الثقافيه ومقدار مالها من قدرة على البقاء . وهذا ولا شبهة كاف لأن يجعلنا من المرونة بحيث نستطيع أن نتخير من الصور الثقافية مايلائم حاجاتنا ويتصل بضرورات حياتنا الاجتماعية . ولا جرم أن هذا مثلا يظهرنا على أن من قلة الايمان ما يمكن أن ينتج نتائج إيجابية ، توازى ماينتج عن قوة الايمان وثابت اليقين ، مع مراعاة الاشياء التى يؤمن بها الانسان ويعتقد بصلاحيتها أو فسادها بقوة استمرارها أو ضعفها عن مقاومة ما يقوم حولها من أعاصير الفكر والطبيعة الانسانية

وفى مستطاعنا أن نضرب لك مثلا آخر . فان المصريين اليوم لأشد الناس اقتناعا بأن الصورة التى صبغت بها انجلترا الثقافة المصرية خلال عشرة العقود الفارطة فى السنين ، لن تدوم ولن يكون لها من الثبات والاستقرار الا بقدر ما كان لما سبقها من الصور الثقافية التى توالت على مصر منذ أبعد الازمان . كذلك تجد ان المصريين أشد الأمم اقتناعا بأن يوم استقلالهم التام لابد آت يوماً من الأيام . فنحن ننظر للمستقبل بقلوب ملؤها الأمل ونفوس مطمئنة إلى النتيجة ، بصرف النظر عما يمكن أن يعتور هذا الاعتقاد من مناحى النقص أو الفساد . فقد نثبت على الصورة التى صبغتنا بها حضارة الامبراطورية الانجليزية ، وقد يكون يوم الاستقلال التام بعيداً جهد مايذهب بك الخيال . غير أننا نقيس على تجاربنا القديمة . فقد انهارت فى مصر

صروح دول وأمبراطوريات وتهدمت أركان مدنيات لاتزال آثارها ماثلة أمام أعيننا،ولا تزال ذكرياتها قائمة فى أذهاننا . ولا جرم أن هذه ظاهرة نفسية أو قل عقيدة يجب علينا أن نحسب حسابها وان نقيم لها وزنها الصحيح فى ميزان الاستنتاج النظرى على الأقل .

نعم قطعنا صلتنا بمصر القديمة . مصر الاهرامات والهياكل واللغة الهيروغليفية وأنبتت صلتنا بمصر الفارسية والرومانية وعقدنا أواصر العلاقة بمصر العربية الشرقية، مصر المساجد والزوايا والمآذن والثقافة العربية على جملة من القول . فلسنا نعرف اليوم آمون ولا رع ولا هوروس ولا إيزيس . بل نعرف الله الواحد الاحد ونعرف كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل . ولسنا نعرف الخط المسمارى ولا اللغة القديمة،بل نعرف الحروف الهجائية العربية واللغة العربية وآداب اللغة العربية . فنحن فى أغوار من المدينة العربية لن يمكن بعدها أن نتخلص منها أو أن ندعى حقاً أو باطلا ،أن فى مستطاعنا أن نغرس بذور ثقافة أو حضارة مصرية بحتة ، تقطع صلتنا بهذه الحضارة ، اللهم بمعجزة كمعجزة العرب فى تعريب الامم التى غزتها فى ثمانين عاما من عمر هذه الدنيا الطويل

غير أنه لايغيب عنا أن هذه الحضارة العربية الرسيسة ، على قدر ماغزت من قلوبنا وأفكارنا ، لاتزال قليلى الايمان بصلاحيتها فى العصر الحاضر للتعبير عن كل حاجاتنا وضروراتنا الاجتماعية مقيسة بمطاليب الحياة الحاضرة .وهذه المرونة التى كسبناها من قلة ايماننا بثبات الحضارات تجربة مع طول الزمان ، هى التى تجعلنا نصرخ اليوم هذه الصرخة العالية مبشرين بثقافة مصرية بحتة لحماً وعظماً ودماً ، من غير أن نجعل لهذه الاعتبارات أى وزن يذكر . أما إذا فهمنا هذه النظرية على هذه الصورة ، فلا شك فى أننا نكون أقرب إلى الصواب منا اذا فهمناها على الصورة المطلقة التى يفهمها الكثيرون من مفكرى هذا الجيل

٢ ــ الحضارة العربية

لست ممن يقولون بأن هنالك حضارة عربية ، بل هى لدى الواقع حضارة اسلامية .ليس فيها من العربية الا اللغة وحدها . لا ننكر أن للعرب وللروح العربية فيها أثرها الثابت ،

ولانكر ان الصبغة العربية مركزة الاثر فى كثير من مظاهرها، ولكن من ينكر بجانب هذا أن المدنية الاسلامية العربية ليس فيها من العرب إلا القرآن ، وإلا قانون الاحوال الشخصيه، و إلا مراسم العبادات. فان هندسة البناء العربى خليط من هندسة البناء الاغريقية والرومانية والمصرية والفارسية . وحتى الفلسفه العربية فانى من المؤمنين بانها كانت فى اصلها مذاهب لاهوتية استمدت من فلسفة الاغريق أسسا تقوم عليها ، كما كان شأن النساطرة واليعاقبه فى جزيرة العرب ومصر وسوريا و بلاد العراق قبل الاسلام . بل لم يعرف العرب المدن قبل الفتح الاسلامى ولا عرفوا كراسى الحكومة إلا على صورة بدائيه، بل ان لباسهم مزيج من اللباس الفارسى والرومى ، بعد أن دوخوا امبراطورية فارس وانتقصوا امبراطورية الرومان من اطرافها .

من هذا المزيج الغريب خرجنا بما يسمى تجاوزا مدنية عربية ، وحقيقة مدنية اسلامية . وعلى قدر مائبتت هذه المدنية على ضفاف نهرى الدجلة والفرات ، وعلى قدر ما امتدت فروعها فى فارس وبلاد الافغان ، وعلى قدر ما تمكنت من المسلمين من اهل سوريا وفلسطين وشمال افريقيه ، كانت فى مصر لا اكثر من اداة تؤدى بها الحاجات الضرورية . فاخذنا اللغة العربية وثبتنا عليها . ولكنا استعربنا عندما حكمنا العرب ، واستتركنا عندما حكمنا الترك والمماليك ، وتفرنسنا عندما غزانا نابليون ، ونحن اليوم تتكلنز بحكم الضرورات وتحت ضغط الظروف القائمة حفافينا . ولا جرم اننا نخطىء كل الخطأ اذا لم نجعل لهذه النظرية أو بالاحرى هذه الظاهرة وزناً نعترف به فى ميزان الاستقراء والاستنتاج . ومن هذه المرونة الغريبة التي اتصف بها الشعب المصرى، سنفوز بخلق حضارة جديدة يمكن ان نتجاوز وندعوها مصرية ، ولكنها لن تكون مصرية لحماً وعظماً ودماً كما يذهب اليه فريق من كبار مفكرينا ، بل مصرية بقدر ما ندعو مدنية الاسلام مدنية عربية .

٣ ــ تلاقح المدنيات

نكتب هذه الصفحات لندلى برأى فى مسألة ثار غبارها المرة بعد المرة واتسعت لها صفحات مجلاتنا وصحفنا السيارة. ولاشك فى اننا انما نذهب هذا المذهب قياساً على ما نرى من تلاقح المدنيات قديماً وحديثاً . واذا اردنا ان نضرب على اختلاف الرأى فى هذه

المسألة مثلا، فليس تحت اعيننا من مثل هو ابلغ مما ذهب اليه فريق من اعلام الباحثين فى مدينة الاغريق القديمة .

ولا يغيب عنا فى بحث كهذا أن تلاقح المدنيات قديم يكاد يكون ونشأة الجماعات الانسانية شيئاً واحداً . هذا اذا تجاوزنا فى التعبير وسمينا النظامات الاجتماعية البدائية مدنيات . وانه لدى الواقع مدنيات او حضارات اينعت فى ظلالها الانسانية، وبانت مجدها الخالد .

ولقد يكون من ماحل الرأى ان نقيس مدنيتنا الحاضرة أو المدنيات القريبة منها والتى ترجع نشأتها الى أربعين قرناً قبل التاريخ الميلادى بالمدنية البدائية التى نشأت فى ظلالها الانسانية خلال العصر الظرانى القديم أو الحديث او ما قبل ذلك . غير أن هذا لا يحول دون القول بان الانسان كان له فى كل عصر من عصور اجتماعه مدنياته على قدر ما احتملت عقليته وتطلبت حاجاته . فكانت النظامات ـ وهو اصطلاح افضله على اصطلاح المدنية فى العصور البدائية ـ التى هى اقوم من غيرها ، تلاقحها النظامات التى هى احط منها واقرب الى الغرارة ، فاما أن تندمج فيها وتبيد ، واما أن تخلص النظامات الانسانية من هذا التدامج أو التلاقح او ما شئت فسمه ، بنظامات جديدة تؤدى اليها ضرورات الزمان والمكان . فما لا شك فيه مثلا أن الجماعات التى عرفت كيف تعيش فى الكهوف قد امتازت بهذا الاستكشاف على الجماعات التى ظلت تعيش فى الاشجار . كما أن الجماعات التى عرفت كيف تستعمل القوس والنشاب قد استطاعت بهذه الوسيلة أن تستقوى على جماعات الكهوف التى كانت تدفع عن نفسها بالهراوات والاحجار . فى حين أن الجماعات التى عرفت كيف تستخدم النار قد اتخذت من معرفتها هذه قوة مكنتها من الضرب فى بقاع اكثر برودة واقل اعتدالا من البقاع التى حوطت نشأة الجماعات الانسانيه فى بداية ظهورها . على أننا لا نكون ابعد عن الصواب منا اذا اعتقدنا بأن الجماعات البشرية التى كانت اكثر ضربا فى مجالى المدنية بمثل هذه المستكشفات ، قد افنت كل ما عداها من الجماعات عند أى احتكاك بينها . بل الطبيعى ان يكون احتكاكها ، وأن انقص فى الجماعات من الانفس والثمرات ، سببا فى أن تتلاقح مدنياتها وتتدامج نظاماتها ، فتقوى العناصر الضعيفة بانتحال الاسباب

التى قوت غيرها من الجماعات . وبذلك لاتزول العناصر الضعيفة زوالا تاما ، ولا تتسود العناصر القوية تسودا تنقرض معه غيرها من السلالات . هذه الحال بعينها يمكن بسهولة ان نطبقها على المدنيات العليا كما طبقناها على النظامات البدائية .

٤ — مدنية مصر واليونان

لا نستطيع أن نمضى فى بحث العلاقة الواقعة بين مدنية اليونان ومدنية مصر على الأخص من غير ان نرجع فى ذلك الى ثقات الباحثين ، ونخص بالذكر منهم العلامه « البرت فور » الفرنسوى الذى ننقل عنه هذا التقرير المطول وقد ترجم الى العربية ترجمة ادت المعني احسن اداء وحوفظ فيها على الاصل بكل أمانة .

قال البرت فور :

إذا تأصلت فى الذهن بتقادم التقاليد اصول فكرة من الفكرات سواء أكانت هذه الفكرة عقلية أو فنية أواخلاقية أو من أى ضرب من ضروب الثقافة والمعرفة ودرجت عليها الأجيال المتطاولة ، فانها لا تمحص و تختبر ولا تعرض على محك النقد لتبلوا نصيبها من الصحة أو الخطأ . وذلك لانه من وقت تقريرها فى الاذهان الى مابعده ، تكون قد دخلت فى حظيرة النحل المقدسة ، وارتفعت الي مرتبة العقيدة الثابتة التى يعد بحثها تدنيسا لقداستها وتهجماً على حرمتها . لهذا السبب ترى كثيرين من مشاهير العلماء والفلاسفه ونابهى الكتاب والمفكرين ، قد أخذوا بأفكار فى منشأ والحضارة اليونانية ، بطلانها من الوضوح والجلاء بحيث يمكن أن تدركه عقول أقل من عقولهم همة واستعدادا

وبتأثير هذه النظرية كان المعروف منذ مدة طويلة . أن الحضارة اليونانية ، أم حضارتنا الغربية ، ليست مدينة الا لنفسها . وطالما كرر الاكثرون بلهجات مختلفة من التأكيد أن فى تلك البقعة الفريدة الممتازة استقى شعب من الانسانية مختار من اعماق نفسه الداخلية ، كل غرائب الفن ومدهشات العلم وروائع الأدب والفلسفة . وموضوع تقريرنا هذا اثبات عكس ذلك واظهار أنه على الأخص فى فرع الفلسفة ، كانت اليونان ، إلى حد معين ، آخذة عن مصر القديمة .

والاثبات الكامل الوافى ممتنع هنا . لأن المشكل لا يمكن أن تحل عقدته اليوم . ولكن لا يخلو من بعض الفائدة تفسيرنا وشرحنا للقاعدة التى سيرتكز عليها ،

وسنقوم بعمل مباشر مثمر ، إذا أعددنا حجراً واحداً للبناء الذى سيتمه غيرنا فى الأيام المقبلة ، عندما يكون علم الآثار المصرية قد قطع فى طريق التقدم الشوط الذى يحق لنا الاستبشار به والاسترسال فيه مع الأمل ، لما تم على أيدى العلماء الذين ترسموا خطوات شمبوليون ومن تقدمه من البحثة المنقبين .

***

لقد عملت معاً على خلق الحضارة ثلاثة شعوب ممتازة بمقدرتها الابتكارية الخلاقة . وهم المصريون والكلدان وأسلاف اليونانيين . واليهم ترجع الثقافة اليونانية . ولقد لعبت مصر فى هذا العمل المشترك دوراً خطيراً إذ وقع تأثيرها قبل الجميع على أسلاف اليونانيين — وهم الذين ورثهم اليونان الأيونيون ويونان العصر الأول . وقد دلت الاستكشافات الحفرية الناجحة فى جزيرة كريت وبيلوبونيزيا وآسيا الصغرى من حول مدينة طروادة ، على وجود حضارات متقدمة فى الألف الثانية والثالثة قبل الميلاد . وتلك الحضارات — وإن شئت فقل هذه الحضارة بصيغة المفرد — لأن لها سمات عامة مشتركة — تكشف عن تأثير شرقى بقدر ما . من ذلك مثلا أننا نجد أوجه شبه كثيرة بين اشياء من منشئات الفن « الميسينى » وأنواع من الفن المصرى ، سواء أفى الزخرف الصناعى أم الفنى .

وهنالك دليل قاطع على أنه قد وجدت علاقات بين سكان اليونان وبين المصريين. وهذه العلاقة بينة تماماً ، حتى لو آثرنا القول بأن الفن « الميسينى » هو الذى أثر فى الفن المصرى ، لا العكس . كذلك نجد أن قصر « كنوزوس » الذى استكشفه فى جزيرة « كريت » مستر « إيفنز » الانجليزى ، قد شيد على مثال الفن المصرى ، وطبقاً لقواعد البناء والعمارة المصرية . ولابد من أن يكون تشييد هذا القصر قد وقع بين سنة ٢٥٠٠ و ١٨٠٠ ق م ، كما يحتمل أن يكون بين سنة ٢٢٠٠ و ٢٠٠٠ . وفى هذا دلالة على أن العلاقات بين اليونان ، وعلى الأقل بين أسلافهم ، وبين المصريين كانت موغلة فى القدم .

غير أننا نذهب إلى أكثر من هذا . نذهب إلى حوالى سنة ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ ق م . فانه من المؤكد تاريخياً أن بين سنة ١٠٠٠ و ١٤٠٠ ق م وفى خلال حرب طروادة أو قبل نشوبها بقليل ، قد تحالف أهل آسيا على المصريين . وكان هذا

التحالف قائماً بين التكريين والدانيين والتريتيين ، وقبائل غيرهم . ولقد قال الباحثون بأن الملحمة التى نظمت فى التغنى بانتصار الفرعون « رمسيس الثانى » وكان يسمى « سيزوستريس » وهو من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، على أهل سوريا ، قد أوحت إلى « هوميروس » فكرة نظم الالياذة . ولا مسوغ للشك فى أن هذه الملحمة قد أثارت ضجة أولا — وكما هو طبيعى — فى مصر نفسها ، لأن اصلها حفر كله أو بعضه فى معابد وآثار كثيرة . أضف إلى ذلك أن الاسيويين الذين انتحلوا حضارة النيل فى الحرب أو التجارة أو المعاهدات السياسية ، قد حملوا بلا ريب صداها إلى أسماع اليونانيين الذين كانوا فى بدء الدخول على دورهم التاريخى المجيد . غير أن استنتاجنا أن الملحمة المصرية قد أثرت فى نظم الالياذة ، لا يزيد عن أنه أمر نظرى سطحى . فقد يمكن أن نتساءل أى تأثير يمكن أن تنقله مصر إلى اليونان من هذه الناحية ؟ لا جرم أن الجزم بأن هنالك تأثير ما يكون عرضة للشك والرجم بالغيب . ومن العبث المضى فى بحث مثل هذا هنا .

ولكنا عند ما نتأمل التشابه فى الشكل بين تمثال « أبولون » الذى عثر به فى « تينيا » على مقربة من « كورنثيا » ، وبين التماثيل المصرية للدول القديمة ، نترك الفروض وندلف إلى عالم الحقائق . ولما كان الاسلوب التقليدى هو الطراز الذى كان سائداً فى العصور المتأخرة من تاريخ مصر ، ولما كان الفنانون يقلدون الآيات الفنية التى جادت بها قرائح أسلافهم ، سنحت الفرصة لليونان فأخذوا يقلدون النماذج المصرية وينسجون عليها ، فى كل عهد ونقلا عن كل مدرسة ، حتى قبل أن يرخص لهم الفرعون « بزاماتيك » بالدخول فى وادى النيل . ومما هو أكثر استثارة للعجب من هذا ، التشابه بين التماثيل القعداء — الجالسة — التى تحف جانبى الطريق المقدس الموصل إلى معبد « أبولون » فى « ميلتيس » ، وبين التماثيل الجاثمة فى مصر ، والتي يرجع عهد بعضها إلى أبعد العصور ، مثل تماثيل « كيفون » من الأسرة الرابعة مثلا . وتماثيل « ميلتيس » قد وضعت أيديها على الركب وتلاصقت سيقانها ، شأنها فى ذلك شأن التماثيل المصرية تماماً . ويمكن للانسان ان يلحظ هذه المشابهة بسهولة ، إذا قارنها بتماثيل « ممنون » التى أقامها أمنوفيس الثالث ، من الأسرة الثامنة عشرة ، وهى متقدمة على النماذج اليونانية بقرون عديدة ، وربما قاربت ثمانية عداً . ومثل

هذه النماذج ترينا كيف أن الحضارة اليونانية الأولى ، أو بالأحرى حضارة أسلاف اليونان والحضارة الأيونية المستيرة قدتأثرت بالحضارة المصرية القديمة » .

وبعد أن حل شمبوليون الرموز الهيروغليفية ، وبعد أن جاهد غيره من العلماء صارفين كل جهدهم فى إعادة الحياة لمصر القديمة ، أصبحنا فى موقف يمكننا من تكوين فكرة عن الأصول المنقوشة على الحجر أو المكتوبة على أوراق البردى . وقد تكونت مجموعة وافرة من المخطوطات من كل نوع بفضل جهد علماء العاديات المصرية الذين زادوا إلى ثروة العلم باستكشافاتهم و باصلاحهم أخطاء عدة ذاعت على أنها حقائق ، عن حضارة مصر ، وبعد أن كانت قد حازت الثقة بين العلماء . غير أننا نقول مع الأسف أن هذه المخطوطات على كثرتها ليست فى الحقيقة إلا جزءاً قليلا من الكتب الكثيرة المكدسة فى المكاتب و فى معابد الفراعنة . و لهذا لا تزال عملية سد الثغرات باقية . كما أن هذا هو السبب فى اختلاف المؤرخين وتفرقهم شيعاً وأحزاباً ، وعلى الأخص لدى النظر فى تفسير ديانة مصر القديمة . ونحن مرغمون على الرجوع إلى المخطوطات التى بأيدينا و تحت تصرفنا ، ومضطرون إلى أن نستنتج منها النتائج التى تعتبر بالنسبة لحالتنا العلمية محتملة ، إن لم يكن باتة ثابتة . ويمكن أن يكون فى استطاعتنا تصوير فكرة حقيقية عن الحياة العقلية والأخلاقية لمصر من السنة الاولى قبل ميلاد المسيح ، وعلى الأخص فى القرنين السادس والسابع ق م — أى من ذلك الوقت الذى تأكدت فيه العلاقات بين مصر واليونان .

حوالى سنة ٦٥٠ ق م ولأسباب سياسية لا تعنينا، دعا الفرعون «بزاماتيك» الأول مؤسس الاسرة السادسة والعشرين ، اليونان من آسيا الصغرى لنصرته . ومن ذلك الوقت إلى مابعده، وفى ظل رعاية هذا الملك وخلفائه، اعطيت لهم اقطاعيات خاصة عند مصاب النيل. وفى القرن السادس اشتهر الفرعون «أمازيس» بسياسة العطف على الهيلينيين - اسلاف اليونان - وقد خصص لهم اقليما لاستعمارهم ابتنوا فيه مدينه يونانية كاملة سميت «نوكراتيس» وألقوا رحالهم أيضا فى بلاد مصرية اخري ، فى منفيس وعبيدوس وفى الواحات الكبيرة . وهكذا انتشرت فى مصر طوائف واشتات من اليونانيين مختلفة الأصول والسلالات . منهم اليونان الايونيون والكاريون، و يونان من آسيا الصغرى و يونان من الجزائر ومن سيرين . ومن أسباب هذا الذيوع والتكاثر وفرة الخصب ورطوبة

الثرى ورخاء الحياة وسلاستها . ولم تكن أسباب هذه الرفاهة مقصورة على ليونة العيش وغزارة الموارد المادية . بل ترجع أيضاً الى خلق الهدوء والسكينة الذى اختص به سكان الوادى . ذلك الخلق الوديع المتشبع بالحضارة السياسية والذى صقله التمدين الراقى

«قال ملهود»

« من الحقائق الكبيرة الهامة أن العلم والحضارة اليونانيين لم ينتعشا إلا بعد الهجرة »

وفى ذلك الوقت كانت الحضارة المصرية فتنة الناظرين وعجب السائحين . ورغم الانحطاط والتدهور السياسى الذى استمر عدة قرون والذى بدت اعراضه فى كل ميدان من ميادين العمل - ولو أنه قد غولى فيه كثيرا - فان تسنم الأسرة السادسة والعشرين لعرش مصر ، كان علامة لعود الحياة الى الفن ، ودليلا على ان العلم والأدب قد نهضا نهضة ردت الى الحياة عهد الفراعنة السابقين الزاهر من رموس الماضى .

وكانت التصورات الاخلاقية الراقية قد ملكت نفسية المجتمع . وكانت منبثة فى مجموعة منظمة من القوانين المدنية والجنائية قد بهر تنسيقها وحسن نظامها القدماء . والفصل الخامس بعد العشرين من «كتاب الموتى» وهو الذى يشمل تزكية الروح . والمسمي بالاعتراف الاساسى أمام محكمة أوزيريس - يكشف لنا عن خلاصة الآداب المصرية ويرينا سمو ادراكهم الاخلاقى ورفعته وتهذيبه . ولأسباب معقولة قورن هذا الاعتراف السلبى بالوصايا العشر عند العبرانيين . ونجد من المؤلفين القدماء الذين وصلت الينا كتبهم على مهابط السنين وعلى الأخص « هيرودوتس » و« وديودوروس» من يبرهن على أن هذه الشريعة الاخلاقية كانت منتحلة عن القوانين والشرائع المصرية

ويحاول «ديودوروس» أن يحملنا على الاعتقاد بان «صولون» قد استعار بعض شرائعه من المصريين وهذا محتمل الى حد كبير بالنسبة لتفوق مصر على جيرانها تفوقا عظيما وللتأثير الذى لايدفع والذى لم تكن مصر لتضعف عن تسليطه على قومه فى زهرة شبابهم الاجتماعى ، متلهفين على العلم ، ولهم مواهب سامية . ولم يكونوا بعد قد أطلقوا العنان لقوتهم الابداعية . وكانت عبقريتهم الغريبة الباهرة ستفتح عن أكمامها بعد «صولون» بقرن واحد من الزمان. وقبل ظهور اليونان فى التاريخ الحقيقى ، كان المصريون هم الذين استحدثوا أكمل حضارة وأفتن مدنية وأزهرها . وكان التعليم

منتشراً فى مصر انتشاراً واسعاً . وعلاوة على طبقة الكهنة الذين كان لهم احتكار العلوم والآداب ، كان هنالك عدد عظيم من كتاب الدواوين ورجال الحكومة يمثل العنصر المثقف من السكان . وكان بكل مدينة عظيمة مدرسة واحدة أو عدة مدارس متصلة بالمعابد ويتكون منها كليات دينيه حقيقية . وتدلنا التقاليد على أن أعظم علماء اليونان وأفضل فلاسفتها كانوا يترددون على هذه المدن العظيمة . وكانت أكثر المدن زواراً وقصاداً مدينة «صان» ـ سايس ـ وفيبوسطه ـ تل بسطه وهى أنقاض الآن بجوار الزقازيق ـ وتنيس وعين شمس وعبيدوس وطيبة . وكانت كلية عين شمس الكهنوتية طائرة الشهرة ، وكان يؤمها اليونانيون ويعتبرون امهم لها جزءاً من برنامج تعلمهم .

وفى عهد سلطة الأسرة السادسة والعشرين ، أى من وقت أن تولى الفرعون «بزاماتيك» الاول الى موت الملك «أحمص» واستيلاء الفرس على مصر ، أى من سنة ٦٥٠ الى ٥٢٥ ق م كان يمكن لليونان أن يؤموا وادى النيل ويعيشوا فيه فى أحوال مواتية لاتقطعهم عن الدرس والمطالعة ولاتحول بينهم وبين اجتناء ثمرات المعرفة . بل أكثر من ذلك تحت سيطرة الفرس ، لم يكن هنالك مايعوق المسافرين والمؤرخين والسياسيين من السفر والتنقل خلال الديار المصرية ، يدرسون عاداتها وفنونها ومعتقداتها الدينية . وهيرودوت خير مثال على ذلك .

ولقد اظهرنا امكان وجود العلاقات العقلية بين مصر واليونان . والآن سنختبر طبيعة هذه العلاقات . وليست المسألة اثبات وراثة فلاسفة اليونان المبكرين المباشرة للافكار والتصورات المصرية فان هذا شىء عسير يصعب ان نحلم به فى حالتنا العلمية الراهنة . والامر هنا يدور حول اثبات أن الفكر المصرى يلزم أن يكون قد أثر بعض التأثير فى الفكر اليونانى . ومن ناحية اخرى نرى أنه من الضرورى تجنب الخطأ المضاد لذلك وهو إنكار أية علاقة لمملكة بالممالك التى تجاورها ، حتى بالممالك البعيدة عنها وبخاصة إذا كانت الأخيرة منازل للعلم والأدب والفن .

أخذ اليونان فى أفكارهم عن يوم الحساب بعض الشىء عن المصريين . ومن أجل هذا كانوا كالمصريين يقتعدون بوجود روح مجنحة وبخلودها ، وكانت تمثل الروح على الاثار المصرية وفى المقابر بصورة طائر ذى رأس بشرى . ومن المحتوم أن يكون اليونانيون قد أخذوا صورة الجنة من مملكة الموت التى كان يحكم فيها أوزيريس .

وحقيقي أنه لامجال لنكران المشابهة والتقارب فى الرنة بين كثير من الكلمات المصرية و بين عدد عديد من الكلمات اليونانية التى تدل على معنى واحد.

وفضلا عن ذلك فان الترع والنيل التى تصور المصريون وجودهما فى العالم الآخر على مثال النيل الحقيقي وترعه الأرضية قد اتخذها اليونان نماذج لأنهر العالم السفلى ومجاريه وقنواته . ومن الصعب أن نشك فى الاصل المصرى لكلمة — Rhudamanthu فهى مأخوذة من الجملة المصرية المعروفة — Ra - in - amenti أى آلة الشمس فى آمنتى — A Menit وهى الحياة المقبلة . وكلمة شارون -charon . للملاح فى العالم السفلى ، مأخوذة من الكلمة المصرية - Karon - — ومعناها زورق أونوتى. ولقد أوحت فكرة محاسبة الموتى امام محكمة أوزيريس الى اليونان افكاراً مشابهة لها والاحرف على ترس « آخيل » - Achiles - البطل الطروادى المعروف، مستمد من التماثيل النصفية المصرية . وقد صيغت الاساطير اليونانية الكثيرة من عناصر مجلوبة من مصر ، مثل اسطورة « هيرقل » فان الاصل المصرى ظاهر بها - ومثل اسطورة « اطلس » الحامل للدنيا برمتها على منكبيه ، وهى فكرة تضرب جذورها فى اصول أشهر الاساطير المصرية

وكان اليونان وهم يطوفون بالمدن المصرية يجعلون الآثار والمعابد قيد عيونهم ومرمى أبصارهم . وكانت هذه المشاهد جل ما يحتاجون اليه لتدريب خيالهم اليقظ الوثاب القدير على التصور

واذا انتقلنا من الاساطير والمعتقدات الدينية الى الافكار الاكثر إستغراقاً للفلسفة، نجد أثر التأثير المصرى فى اليونان . ففكرة العدل العالية التى تراها فى « هسيود » هى فكرة مصرية بحتة « وثيمس » اليونانية هى « ما » - Ma - المصرية آلهة الحق والعدل، ويتمثل فى شخصها القانون الاخلاقى والسنن المرعية عند المجتمع ويعنو لهيبتها الفرعون نفسه «وهسيود » يجعلنا نفكر فى مصر عند امتداحه لحياة العمل والسير فى منهاج الفضيلة وكذلك عند ما ينصح لنا بالسعى الحر الجرىء

هذه خلاصة وافية من تقرير العلامة « البرت فور » الفرنسوى اتينا عليها تتخذها لهذا البحث اساساً وركيزة ولا شبهة مطلقاً فى أن المدنية اليونانية القديمة هى أرقى المدينات التى قامت على وجه هذا السيار فى الاعصر القديمة . ويسرى هذا الحكم

على كل الوجوه التي تقلب عليها صفة هذه المدنية .فهى فى الفن كما هى فى العلم والمعرفة والآداب مثال لما وصلت اليه مدارج التثقيف العقلى فى الاعصر القديمة . غير أن هذا لا يقوم حائلا دون القول بان المدنية اليونانية لم تبدأ فى الارتقاء الحقيقى الا بعد احتكاكها بالشرق فى « إيوليا - Aeolia - و « ايونيا » - Ionia - فى آسيا الصغرى حيث كان فى تلك البقاع مدنية أرقى من مدنية بلاد اليونان لدى أول تحضرها (١) كذلك لم يبق من شىء فى مدينة اليونان لم يتأثر باحتكاكهم بمدنيات آسيا الصغرى ،حتي دينهم. فانه على الرغم من أنه يكاد يكون خاصاً باليونان وحدهم ونشأته ذاتيه بينهم .فانه تأثر باديان الشر وأقتبس الكثير من قواعدها ومعتقداتها (٢) ومهما قلبنا وجوه الرأى وأمعنا فى البحث ، فأننا لا نستطيع أن نعثر على مدنية يونانية صرفة ، أى مدنية ليس فيها أثر من مدنيات أخر

غير أن الاعجاب الشديد باليونانيين القدماء ، قد دفع الكثيرين من الباحثين واصحاب الرأى الا أن يقاوموا حقيقة تأثر اليونان بمدنيات الشرق القديمة ، حتي انهم لم يكتفوا بانكار ذلك الأثر ، بلا تطرفوا الى القول بان الفكر اليونانى وليد بلاد اليونان ،تأصل فيها ونشأ غير متأثر بشىء مما سبقه من نواتج الفكر الانسانى وجهوده وحضاراته وصور ثقافاته العديدة (٣)

كذلك تجد أن التعصب لبعض الصفات التى تتصف بها الامم ، والتشبث بما لبعض الامم من النبوغ وفائق المقدرة ، امر ان ساقا فئة من كبار الباحثين الى العكوف على فكرات هى الى ناحية الرجم بالغيب أقرب منها الى مناهج العلم اليقينى. على انه من أقرب الاشياء الى الحق انك اذا رأيت أمة فى التاريخ اخذت تضرب بسهم فى مدارج الارتقاء الفكرى والفنون وبقية مطاليب الحياة ومستحدثاتها وضروراتها ، وانها بدأت تخطو فى سبيل ذلك خطوات سريعة ثابتة ، حكمت بان تفوقها على هذا النمط راجع الى ما أحدثه احتكاكها بامم أجنبية عنها من الانعكاس الذى يظهر أثره فى صفاتها

---

(١) راجع Meyer الالمانى

(٢) راجع - Meyer - الالمانى — ودكنر Dunker

(٣) راجع روبرتسون فى كتابه تاريخ حرية الفكر . ومن الذين يقولون باستقلال الثقافة اليونانية العالم ريتر Ritter فى كتابه تاريخ الفلسفه القديمة . وريتان فى كتابه تاريخ الاديان وزيللر الالمانى فى كتابه تاريخ الفلسفة اليونانية .فان هؤلاء وغيرهم يقولون باستقلال الثقافة اليونانية عن غيرها ولكن رأيهم ظاهر الخطأ

ومشاعرها . أنظر فى المدنيات الاولى ، مدنية اشور وبابل والكلدان ومصر ، فانك تجد ان ارتقاءها المدنى كان بطيئا واستجماعها لاسباب الرقى والحضارة والتثقيف العقلى كان أبطأ وذلك يدل على أن سرعة الارتقاء المدنى يرجع الى ما يؤثر فى الامم ذوات المدنيات المستحدثة الثابتة القوية فى عصر ما ، من المنبهات التى تستمد اسبابها من معارف الأمم الاجنبية عنها وفكراتها وطرق تثقيفها عامة .

أما تفوق اليونانيين فى عصور مدينتهم القديمة المعروفة فى التاريخ ،فلا يرجع على ماتقدم الى نبوغهم وتفوقهم الذاتى تفوقا خارقا للطبيعة كما يدعى كثير من الباحثين . بل يرجع استنتاجا الى ماطرأ على صفاتهم المدنية من نشوء وتطور : كان سببه اختلاطهم بغيرهم من الشعوب المجاورة لهم من جهة ، ومن طريق ماوضعوه من النظم الاجتماعية من جهة اخرى . ناهيك بموقع بلادهم الجغرافى وتقسيم أرضهم فى الداخل تقسيما أوسع بين المدائن المتفرقة سبيل المنافسة ،خلاماتؤدى اليه المنافسة من رقى فى الصفات المدنية التي ترتكز عليها قواعد العمران

قال روبرتسون :

تدل المباحث التاريخية على أن اليونانيين القدماء، فى فجر مدينتهم ،كانوا خليطا من قبائل شتى . وزاد اختلاطهم على مدى الأيام . كما أن معارفهم وعلومهم ترجع فى مبدإ الأمر الى أهالى «تراقيا» وهم ليسوا أغريقاً Non-Grecians وكانوا يعبدون آلة الشعر (١)

كذلك ذكر هيرودوت أن أصل اليونان قبيلة حربية ذات نفوذ واحترام عظيمين تبعها كثير من القبائل الأخرى التى كانت آخذة بتعاليمهم ، وصرفت على نفسها اسم تلك القبيلة (اليونان).

وقال ثيوسيديدس :

لا يمكن أن نعثر فى العصر التاريخى على شعب يونانى أصيل لم تجر فى عروقه دماء دخيلة من قبائل أخر ـــ كذلك لاينكر مؤرخ أن الاسبارطيين يونان . وأما الآثينيون قبيلاسيجيون- Plasgians- ولكنهم مع الزمن اصطبغوا بصبغة اليونان

(١) «تاريخ حرية الفكر مجلد ١ ص١٢٢ .

وتعلموا لغتهم .ولا جرم أننا اذا قلنا اليونان عنينا أهل أتيناقبل أهل بقية المدائن الاخرى. وفى هذه الأسانيد التاريخية دليل على أن الحضارة اليونانية قد تطورت باللقاح السلالى عدة تطورات هامة ضاع تاريخها ،وانها لم تنشأ غير متأثرة بغيرها من الحضارات القريبة منها والبعيدة عنها .

٭٭٭

اما اذا رجعنا الى النماذج الفكرية تتخذ منها دليلا على تلاقح الفكر بين اليونان وغيرهم من أهل المدنيات القديمة، فأننا نقع على سلسلة طويلة من الأفكار والصور تثبت علاقة اليونان بمصر على الاخص . لهذا نمضى فى بحثنا متخذين من مظاهر المدنية اليونانية ظاهرة التثقيف العقلى موضعاً لابحاثنا

يتبع

اسماعيل مظهر

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

كتاب

الضحية

أصرح

روايات وأبحاث أخرى

تأليف

طاغور الشاعر الالهى المعروف

بقلم

اسماعيل مظهر